العهد المختوم بالدم

الخوري نعمةالله الخوري

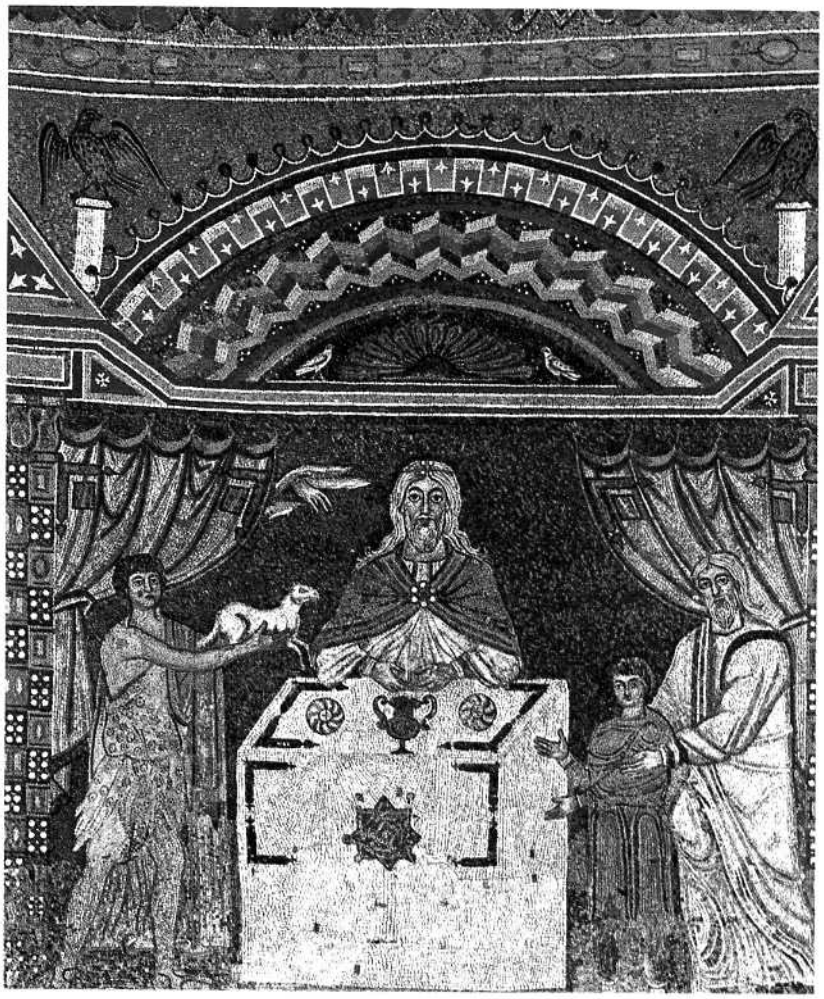

الدم عنصر أساسي في تقادم العهد القديم، كما في بَتّ العهود

(فسيفساء في كنيسة القديس أبوليناريوس، رافِنّا، إيطاليا)

العهد المختوم بالدم

(عب ٩ : ١٥ ٢١ ؛ ١٠ : ٢٩)

يقابل كاتب الرسالة الى العبرانيين بين العهد القديم الذي قطعه الله مع شعبه في سيناء (عب ٩ : ١٩–٢١)، وبين العهد الجديد الذي دشّنه المسيح بدمه (١٠ : ٢٩)؛ إن لدم التيوس والعجول دوراً أساسيّاً في العهد الأول، في حين ان المسيح ختم العهد الجديد بدمه الخاص. سنحاول ان نعالج المقابلة بين ذبائح الهيكل وذبيحة المسيح، لنتوصّل الى معرفة المعنى اللاهوتي العميق الذي يتضمّنه دم المسيح الذي سال على خشبة الصليب.

أولاً : العهد القديم المختوم بالدم

يخبرنا سفر الخروج (٢٤ : ٣–٨) ان موسى رفع في برية سيناء اثني عشر نصباً لأسباط اسرائيل الإثني عشر، وبنى مذبحاً ليرشّ عليه دم الذبائح التي قدّمها الشعب للرب؛ تلا موسى على مسامع الشعب كتاب العهد، فالتزم الحاضرون بأن يحفظوا أحكام العهد، وبعد ذلك رشّ موسى الدم على الشعب قائلاً :

«هوذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال» (٢٤ : ٨). ان القرار الذي اتخذه الشعب بقبول العهد يبدو أساسيّاً، فهو يعني ان الشعب عبّر عن إرادته بالخضوع لأحكام هذا العهد؛ هذا الأمر لا يعني أن صحة العهد هي مرتبطة بخضوع الشعب لأحكامه، ولكنّ القرار الشخصي الذي يتخذه الشعب هو ضروري، وهو يشكّل ضمانة شخصية لتنفيذ متطلبات العهد. بعبارة أخرى نقول ان العهد يبقى بدون معنى إذا امتنع الشعب عن تنفيذ أحكامه.

يتضمّنّ هذا العهد المختوم بالدم ثلاثة مظاهر : إنّه عطية من الله إلى الشعب، وهو يدشّن علاقة بين الله وشعبه، وهو يفرض التزامات على الشعب.

احتفظ الشعب اليهودي بذكرى العهد الذي قطعه الله مع موسى في سيناء، فكان الكاهن اليهودي يدخل مرة واحدة في السنة إلى قدس الأقداس، وهو القسم الأكثر قداسة في هيكل أورشليم؛ كان الكاهن يدخل اولاً مع دم ثور ليكفّر عن خطاياه الشخصية، ثم يدخل ثانية مع دم تيس ليكفّر عن خطايا الشعب (لا ١٦ : ١ ي). ان دم الذبائح (عب ٩ : ٧) هو العنصر المادي للعبادة، فقد شاء الله ان يستعمل الإنسان لحم الذبيحة للطعام، في حين ان الدم هو مخصّص للاستعمال الطقسي. يتضمّن الدم معنىً رمزياً، فهو يرمز الى الحياة (لا ١٧ : ١١-١٢)، وهذه الحياة هي ملك للخالق الذي يعطيها؛ ان تقدمة دم الذبيحة على المذبح ترمز الى عودة الحياة الى الله الحاضر في قدس الأقداس، وهذا العمل الطقسي يجب ان يتمّ على المذبح، مكان وجود الله؛ وحده الكاهن

كان تابوت العهد يمثل «عرش الرب» وحضوره في وسط شعبه، كما هو وارد في العهد

(لقطة عن إناء من السيراميك، لأُورَاتْسِيُو فُونْتانا، القرن السادس عشر، متحف La Santa Casa, Italia)

يستطيع القيام بهذا الدور لأنه الوسيط بين الله والناس، فإذا غاب الكاهن لا يمكن للشعب الوصول الى الله. ان حياة الضحية لم تذهب سدىً، فقد قدّم الكاهن الدم على المذبح وعادت الحياة (التي يرمز اليها الدم) الى الله.

من جهة أخرى نقول ان عملية الذبح بحد ذاتها لا تملك أيّ معنى، لأنه يمكن لأي انسان ان يذبح ضحية، غير ان رشّ الدم على المذبح هو الذي يعطي المعنى الحقيقي للذبيحة؛ ان موت الذبيحة يأخذ كامل معناه في رشّ الدم الذي يرمز إلى الحياة المعطاة. حين يرشّ الكاهن الدم على المذبح، يحصل المؤمن على غفران الخطايا (عب ٩ : ٢٢)، وهذا يعني أنّ الله استعاد ملكيته للإنسان بعد ان ابتعد هذا الأخير عن الله بارتكابه المعاصي.

لم يتمكّن الكهنة، وسطاء العهد القديم، ان يقودوا الشعب في الطريق الموصل إلى الله، ولم تستطع ذبائحهم الدموية أن تقرّب الناس إلى الخالق، فاستبدلهم الله جميعاً بوسيط وحيد هو الابن يسوع المسيح الذي أقام مع شعبه عهداً جديداً بدمه.

ثانياً : المسيح يختم العهد الجديد بدمه

يؤكّد كاتب الرسالة إلى العبرانيين أن المسيح هو وسيط العهد الجديد (٩ : ١٥)؛ فقد استطاع أن يحقّق مواعيد الله بواسطة دمه الذي كفّر به عن خطايا الشعب، لأنّ ذبيحته لها فاعلية كاملة ونهائية. يشدّد الكاتب على معنى العهد والوصية، ويجعلهما في ارتباط وثيق مع الدم الذي دشّن به المسيح العهد الجديد.

١ ـ ذبيحة المسيح

كانت الطقوس القديمة غير ذات فاعلية، لأن الكاهن كان يقدّم دم العجول والتيوس، في حين أن المسيح هو عظيم الكهنة الذي دخل قدس الأقداس مرة واحدة، مستعيناً لا بدم التيوس بل بدمه الخاص (٩ : ١١-١٢). يقول كاتب الرسالة : «فإذا كان دم التيوس والثيران ورشّ رماد العِجلة يقدّسان المنجّسين، لتطهر أجسادهم، فما أولى دم المسيح الذي قرّب نفسه إلى الله بروح أزلي قرباناً لا عيب فيه، أن يُطهّر ضمائرنا من الأعمال الميتة لنعبد الله الحيّ» (عب ٩ : ١٣-١٤)؛ يقارن الكاتب بين دم المسيح ودم العجول، فيعتبر أنه لا يمكن أن نضع على مستوى واحد دم التيوس من جهة ودم المسيح من جهة أخرى؛ للوصول إلى هدف المقارنة بين ذبيحة المسيح وذبيحة الكهنة، يستعمل كاتب الرسالة برهان «بالأحرى كثيراً» (٩ : ١٤) ليؤكّد أن دم المسيح له فاعلية كبرى ونهائية، وهو يتفوّق على دم التيوس والعجول الذي أضحى بدون فائدة.

إن المسيح الذي قدّم دمه على الصليب هو في الوقت عينه ذبيحة كاملة وكاهناً قادراً؛ لم يمتلك كهنة العهد القديم هاتين الصفتين، في حين ان المسيح كان ذبيحة كاملة لأنه بدون عيب، والمسيح كان أيضاً كاهناً قادراً لأنه نال الروح الأزلي (٩ : ١٤). حين قدّم المسيح ذاته، حوّل موته إلى انتصار على الخطيئة، وأضحى موته مصدر وحدة مع الله وتضامن مع البشر.

كان العهد الأول في سيناء ناقصاً، وقد وجد كاتب الرسالة إلى العبرانيين برهاناً على هذا الأمر في كلام إرميا الذي استشهد به كاتب الرسالة بإسهاب (ار ٣١ : ٣١-٣٤؛ رج عب ٨ : ٨-١٣)؛ يقول إرميا إن الله سيعقد مع شعبه عهداً جديداً يختلف عن العهد الذي قطعه مع آبائهم في سيناء؛ ان الكلام عن العهد الجديد يعني حتماً أن العهد القديم أضحى هَرِماً وغير قادر على منح الخلاص. استطاعت ذبيحة المسيح الكاملة على الصليب أن تحلّ محلّ طقوس الهيكل وأن تدشّن عهداً جديداً أبدياً يتطابق مع نبوءة إرميا.

٢ ـ العهد والوصية

يقول كاتب الرسالة : «لذلك هو وسيط لعهد (دياتيكي) جديد، حتى إذا مات (ثاناتو) فداءً للمعاصي المرتكبة في العهد (دياتيكي) الأول، نال المدعوون الميراث الأبدي الموعود، لأنه حيث تكون الوصية (دياتيكي) فلا بدّ أن يثبت موت (ثاناتون) الموصي. فالوصية (دياتيكي) لا تصحّ إلاّ بعد الموت، لأنه لا يُعمل بها ما دام الموصي حيّا. وعلى ذلك فإن العهد الأول لم يُبرم بغير دم» (٩: ١٥-١٨).

إن الكلمة اليونانية «دياتيكي» التي ترد في هذا النص لها معنيان استعملهما الكاتب في آنٍ معاً :

- دياتيكي = العهد الذي قطعه الله مع الشعب.
- دياتيكي = الوصية التي بها يوصي الميت لورثته.

استعان كاتب الرسالة بهذا المعنى المزدوج لكلمة «دياتيكي» : من ناحية، يفرض العهد وجود الدم، لأن الكاهن يأخذ دم الذبيحة ليرشّه على المذبح؛ ومن ناحية أخرى، تصبح الوصية نافذة بعد موت الموصي، لأنه طالما أن الموصي حيٌّ، فإن الوصية لا تملك صفة قانونية.

يجعل كاتب الرسالة في ٩ : ١٥ - ١٧ رباطاً قوياً بين العهد (دياتيكي)، وبين الموت (ثاناتوس)؛ فالعهد الأول خُتم بالدم والعهد الجديد خُتم بدم، المسيح؛ والوصية لا تحمل أي معنى إلاّ بعد موت الموصي.

استطاع المسيح أن يكون وسيط العهد الجديد من خلال المعنى المزدوج لكلمة «دياتيكي» : في نهاية حياته العلنية قدّم المسيح دمه على الصليب، فأسّس العهد الجديد، وفي الوقت عينه أضحى العهد الجديد نافذاً بعد موت المسيح. بعبارة أخرى نقول إن المسيح يجب أن يموت ليستطيع تأسيس العهد الجديد ولكي ينعم الوارثون بخيرات وصيته.

خاتمة

حين ابتعد الانسان عن الله استحقّ الموت، ولكنّ الله لم يسمح بتقديم الذبائح البشرية؛ فقد منع ابراهيم من ذبح ابنه (تك ٢٢ : ٩)؛ لم تستطع ذبائح الحيوانات في العهد القديم أن تمنح غفران الخطايا، لذلك انتظرت البشرية موت المسيح الذبائحي وسفك دمه لكي تنال الغفران؛ دخل المسيح إلى قدس الأقداس وقدّم دمه النقي ذبيحة لمغفرة الخطايا، فأضحت السماء الهيكل المخصّص للاحتفالات الليتورجية حيث يسبّح المؤمنون بلا انقطاع الحمل الذبيح والواقف (رؤ ٥ : ٦). في العشاء الأخير مع تلاميذه، أعلن المسيح تأسيس العهد الجديد بدمه الذي يهرق عن الكثيرين (لو ٢٢ : ٢٠)، وقد تحقّق وعد المسيح لتلاميذه بموته الذبائحي على الصليب.